فتك الاسد

قتل الاسد الاول

حدث بعد ما ذكر في الفصل السابق اني كنت خارجاً من خيمتي ذات يوم عند الفجر واذا انا برجل سواحلي يركض نحوي وينادي الاسد الاسد . ثم اخبرني ان الاسد حاول اختطاف رجل من المخيم الذي على ضفة النهر ولما لم يتيسَّر لهُ اختطافهُ افترس حماراً وهو رابض الآن عليهِ يلتهمهُ

فقلت حانت الساعة واخذت بندقية كبيرة تركها لي المستر فركهار وسرت وراء السواحلي على اتم ما يكون من الحذر حتى صرت على مقربة من الاسد وكان الدغل يحجبهُ فلا يظهر الاَّ قليلاً . واتفق حينئذٍ ان الرجل داس عوداً يابساً فانكسر وسمع الاسد صوتهُ فزأر وتوارى عن نظري . فعدت الى المخيم ودعوت الرجال ليأتوا بكل ما تصل اليهِ يدهم من الطبول والصنوج وصفائح التنك وسرت بهم واوقفتهم في نصف دائرة حول المكان الذي اختفى الاسد فيهِ واخترت انا مكاناً لا بدَّ للاسد من ان يمرَّ امامهُ ووقفت وراء تلة من تلال الارضة وامرت الرجال ان يقرعوا طبولهم وصنوجهم وصفائحهم ويضيئوا حلقتهم رويداً رويداً . وتحال علا منهم صوت يصمُّ الآذان فخرج الاسد من مخبئهِ وهو كبير الجثة لا لبد لهُ وهذه اول مرة رأيتهُ فيها فمشى الهوينا وجعل يلتفت يمنةً ويسرة كما سار بضع خطوات . والظاهر ان اشتغال بالهِ بالاصوات وبراهُ حال دون رؤيتهِ اياي لان تلة الارضة لم تكن تحجبني تماماً عن نظرهِ حتى اذا صار على خمسة عشر متراً مني انتبه اليَّ فدُهش على ما يظهر لانني باغتهُ مباغتةً فربض في مكانهِ وزأر زئيراً مزعجاً . فسدَّدت البندقية الى رأسهِ وقلت في نفسي قضي الامر . ولكن لقد صدق من قال لا تأمن بندقية لم تجرِّبها فاني اطبقت الزناد فلم تنطلق البندقية ومن شدة دهشتي نسيت ان اطلق الحديدة الثانية منها وعزمت ان احاول دكها اذا امهلني الاسد وحسن حظي كان الصباح قد اذهلهُ فلم يثب عليَّ كما كان ينتظر منهُ بل وثب الى دغل عن جانبهِ ليختفي فيهِ وحينئذٍ عدت الى صوابي واتجهت الى اني لم اجرب اطلاق الحديدة اليسرى فاطلقتها عليهِ وهو واثب فزأر زئير الغضب دلالة على ان الرصاصة اصابتهُ لكنهُ لم يقع بل استمرَّ في عدوهِ واقتفيت اثرهُ الى ان وصلت الى صخور اختفى الاثر فيها

فرجعت وانا المن الساعة التي اعتمدت فيها على بندقية لغيري والمن صانعها وبائعها · وزاد غيظي من نفسي لان المتود اعتقدوا ان ذينك الاسدين من الارواح التي لا تعمل بها الاسلحة

ولم يبقَ لي الاَّ ان اعود الى المخيم بالخيبة ومررت في طريقي على جثة الحمار لارى ما فعل به الاسد فرأيت انهُ لم يأكل منهُ الاَّ بعض فخذيه لان الاسود تبتدئ من ذنب فريستها · فقلت في نفسي لا بدَّ اذاً من ان يعود اليهِ متى خيَّم الليل ولم يكن هناك شجرة أقيم فيها فامرت رجالي ان ينصبوا لي عرزالاً على نحو ثلاثة امتار من جثة الحمار فنصبوا اربعة اعمدة كالشيَّب و بسطوا عليها لوحاً في اعلاها ور بطنا جثة الحمار باسلاك متينة مكنَّاها باوتاد في الارض حتى لا يتمكن الاسد من جرها من مكانها · ولما غابت الشمس صعدت الى العرزال وجلست على اللوح ولم آخذ معي خادمي مهنَّا الذي يحمل بندقيتي عادة لانهُ أصيب بسعال شديد وخفت ان يسعل فيجفل الاسد · وخيَّم الظلام حالاً واستولت السكينة كما تستولي عادةً في تلك القفار فجلست افكر في امري وتعريضي نفسي للخطر حتى كاد النعاس يغلبني واذا انا بصوت كأنهُ اغصانٌ تتكسَّر في الاجمة بزور حيوان كبير فيها · ولم يكن الاَّ قليل حتى سمعت تنهُّدًا عميقاً كما يتنهَّد الاسد الجائع وتلاهُ صوت تكسُّر الاغصان الصغيرة وخفيف اوراقها دلالة على ان الاسد كان لا يزال في الاجمة وهو سائر متلصصاً نحو فريستهِ · ثم وقف وزأر دلالة على انهُ شمَّ ريحي ودرى بي فخفت ان يراني ويهرب فارجع بخفي حنين لكنهُ لم يهرب ولا هجم على فريستهِ بل جعل يدور حول العرزال بعيداً عنهُ ثم اخذ يدنو منهُ رويداً رويداً ومضت ساعتان وهو يدور حولي على هذه الصورة كأنهُ عزرائيل ولو وثب عليَّ حينئذٍ لقلب العرزال بي لا محالة · فندمت على ما فعلت ولات ساعة مندم ولم اجسر ان اغمض جفني لحظة ودامت الحال على هذا المنوال الى نصف الليل · وانا كذلك واذا بشيء لطم رأسي فقلت هو الاسد وثب عليَّ وكدت اسقط من مكاني ولكنني تجلدت وانتبهت جيداً فرأيت ان يومة ظلتني شجرة فوقعت عليَّ وشعر الاسد باضطرابي فزأر زئيراً مخيفاً ثم جعل يدنو مني رويدً رويداً حتى صار يسهل عليَّ ان اتبيَّن شكلهُ فمددت بندقيتي اليهِ واطلقتها فزأر زئيراً يصمُّ الآذان وجعل يثب يمنة ويسرة كالمجنون واختفى عن نظري لانهُ دخل الاجمة ولكنني كنت اسمع صوتهُ و بقيت اطلق الرصاص عليهِ تابعاً الصوت · واخيراً زأر زأرتين شديدتين ثم استحال زئيرهُ الى تنهد فغطيط الى ان انقطع تماماً فايقنت انهُ هلك

وعلت ضوضاء رجالي في المحلة لما سمعوا صوت البارود وكانوا على ربع ميل مني فنادتهم

واخبرتهم اني قتلت احد الاسدين فاسرعوا اليَّ بالمشاعل وهم يزأطون ويقرعون الطبول ويفخرون بالابواق والادغال تردد صداهم الى ان وصلوا اليَّ وانا في عرزالي فجثوا على ركبهم حولي كأنهم يعبدونني وارادوا ان يفتشوا عن جثة الاسد ليأتوني بها فنهيتهم لئلا يكون رفيقهُ معهُ فيفتك بهم فرجعنا الى المخيم وقضوا بقية الليل في الرقص والطرب

وقبل الفجر اسرعت الى محل الواقعة وانا اخاف ان يكون الاسد قد خدعني ونجا مني ولكن خوفي لم يكن في محلهِ لانني لم اكد اتفقد اثر الدم خطوات كثيرة حتى رأيت وراء نجم من العشب اسداً كبيراً رابضاً كأنهُ يتحفز للوثوب فامعنت نظري فيهِ واذا هو جثة هامدة . وكان رجالي قد تبعوني الى هناك فحملوني على اكتافهم وجعلوا يدورون بي حولهُ وهم يرقصون ويطربون

ثم تفحصت جثة الاسد فوجدت انهُ اصيب برصاصتين الواحدة دخلت من وراء كتفهِ اليسرى والظاهر انها خرقت قلبهُ فكانت القاضية عليهِ . والثانية اصابت فخذهُ . وكان طولهُ من انفهِ الى طرف ذنبهِ تسع اقدام وثماني عقد وارتفاعهُ ثلاث اقدام وتسع عقد واقتضى حملهُ الى المحلة ثمانية رجال . ولا عيب فيهِ الاَّ ان جلدهُ كان مهشماً من زجر نفسهُ بين الاشواك والهشيم وهو حامل فريسته

وانتشر خبر فتكي بهِ في البلاد كلها وجاءني تلغرافات التهنئة من كل مكان واتى كثيرون من اماكن مختلفة لمشاهدتهِ

قتل الاسد الثاني

قُتل احد الاسدين لكن رفيقهُ لم يتَّعظ بقتلهِ ولا ارتدع عن فتكهِ لم تمضِ ايام كثيرة حتى هجم على مفتش الطريق في بيتهِ فظن المفتش ان عاملاً سكيراً دخل ارواق الذي حول البيت وجعل يعربد فزجرهُ ولكنهُ لم يخرج اليهِ فحسب انهُ خرج الى مبيتهِ لاعالة ولما رأى الاسد انهُ لم يجد انساناً يفترسهُ هجم على عنزتين كانتا بالقرب من المفتش واقترسهما امام البيت

ولما بلغني ذلك عزمت ان اقيم في الليلة التالية قرب بيت المفتش وكان هناك كرخ من الحديد فيهِ كرة صغيرة تصلح متراساً لرمي الرصاص . فاقمت فيهِ ورابطت ثلاث عنزات خارجهُ بقطعة كبيرة من الحديد ثقلها نحو ٢٥ رطلاً (ليبرة) ومضى الليل كلهُ ولم يحدث شيء وقبل الفجر جاء الاسد واختطف عنزة وسار بها وجرَّ معها قطعة الحديد والعنزتين الاخريين فاطلقت عليهِ طلقات كثيرة فاخطأتهُ لان الظلام كان دامساً . وعند الفجر جاء الرجال الذين فسرت معهم لتقفي آثار الاسد وما جرَّهُ معهُ فوصلنا اليهِ بعد نحو ربع ميل وكان لا يزال

مشغولاً بفريسته فلما شعر بقدومنا زأر مغضباً ووثب من امامنا واختفى في الدغل والغال وثب الرجال الذين معي كلٌّ واحد الى شجرة الاَّ المستر ونكلر فانهُ بقي معي فجعلنا نرشق الاسد بالحجارة لعلهُ يخرج من مخبإهِ ولكن ثبت لنا اخيراً انهُ انسلَّ من هناك وابعد عنَّا . وكان قد اكل عنزة وشرع في اكل اختيها فقلت في نفسي انهُ لا بد من ان يرجع ليتم اكلها وامرت رجالي ان ينصبوا لي عرزالاً متيناً قرب العنزتين فنصبوهُ وصعدت اليهِ في المساء ومعي خادمي مهنَّا الذي يحمل بندقيتي لكي تتناوب لاني تعبت من كثرة السهر ليالي متوالية ولم يكد الكرى يزين جفني حتى نكزني مهنَّا بيدي واشار الى جهة العنزتين وهو يقول شير شير اي الاسد الاسد فرفعت بندقيتي وحدقت بنظري واذا بالاسد خارج من الدغل فاطلقت عليهِ رصاصتين في وقت واحد بعد ان سدَّدت الى كتفهِ فانطرح على الارض لكنهُ نهض حالاً وقبل ان اسدِّد اليهِ البندقية الثانية اختفى عن نظري . فجعلت اطلق الرصاص عليهِ جزافاً كلما سمعت صوتاً وكنت واثقاً انهُ لا بد من قتلهِ في الصباح ولذلك قمت لاقتفي اثرهُ حالما يزغ الفجر وسرت ميلاً وآثار الدم امامي وكنت ارى ما يدلُّ على انهُ كان يسير خطوات قليلة ثم يقف ليستريح فايقنت انهُ جرح جرحاً بالغاً ولكن انقطع اثر الدم بعد ذلك وصارت الارض صخرية لا يبقى فيها اثر لاقدامهِ

ونحو ذلك الوقت مرَّ بنا السر علفرد مرلسبورث مستشار حكومة الهند في سكك الحديد موفداً من قبل نظارة الخارجية فرأى الكبري (الجسر) الذي بنيناهُ وسرَّ بهِ وعزَّانا عمَّا لقيناهُ من الاسدين وسرَّ بقتلي احدهما وسألني عن الاسد الآخر ولما قلت لهُ اني ارجو ان اقضي عليهِ قريباً تبسَّم تبسُّم الشك

ومرَّت عشرة ايام ولم نرَ للاسد اثراً ولا سمعنا عنهُ خبراً فرجونا ان يكون قد مات من جرحهِ لكننا بقينا على ما كنا فيهِ من الحذر وحسناً فعلنا والاَّ لافترس رجلاً آخر على الاقل . ففي السابعة والعشرين من دسمبر سمعت صراخاً شديداً من الرجال الذين يجرُّون مركبتي وكانوا نياماً في شجرة خارج زريبتي فان الاسد يتهم وجعل يحاول الوصول اليهم وكانت الغيوم تغطي القمر والظلمة حالكة فلا استطيع ان ارى الى ابعد من متر فلم اجسر على الخروج من زريبة خيمتي بل جعلت اطلق الرصاص جزافاً تحريفاً لهُ فخاف ومضى في سبيلهِ بعد ان دار حول زرائب اخرى ولم يجد لهُ سبيلاً لمدخلها كما علمنا من آثارهِ في الصباح

وفي الليلة التالية قصدت المبيت في تلك الشجرة حاسباً ان الاسد يأتيها و بينما انا صاعد عليها وضعت يدي على افعى سامَّة كانت على احد اغصانها فارتعدت فرائصي وعدت ادراجي

باسرع ما يكون وجاء احد رجالي بعمود طويل وضرب الافعى فقتلها ثم عدت الى الشجرة وكانت السماء صافية الاديم والقمر شديد الاشراق حتى كان الليل صار نهاراً فسهرت الى الساعة الثانية بعد نصف الليل ثم ايقظت مهنا ليسهر وغبت ساعة ثم استيقظت بغتة كأن شيئاً ايقظني فوجدت مهنا مستيقظاً ولكنه لم يكن قد رأى شيئاً ولا سمع صوتاً مع انه كان على غاية الحذر. ولما رأيت الامر كذلك ملت رأسي لانام فخيل لي اني رأيت شيئاً يتحرك بين المدخل الواطئ على بعد قليل من الشجرة فامعنت النظر فيه فرأيت اني لم اكن مخطئاً وانه الاسد يتسلل خلسة وكانت الادغال قليلة حول الشجرة فراقبته منها واذا هو يتسلل من وراء دغل الى وراء دغل آخر كاللص كأن التجارب علمته التوقي. فقلت في نفسي يجب ان اصيد هذه النوبة ولا ادعه يفلت من يدي. فصبرت حتى صار على عشرين خطوة من الشجرة ورميته بالرصاص في صدره وسمعت وقع الرصاصة فيه ولكنه لم يقع بل زأر وعاد ادراجه وهو يثب وثباً ولم ادعه يفر سليماً بل اطلقت عليه ثلاث رصاصات اخرى وهو فار فاصابته الاخيرة منها كما علمت من جثيره.

وبقينا في الشجرة الى ان بزغ الفجر فنزلت واخذت معي رجلاً من الخبيرين باقتصاص الاثر حتى لا اشتغل عن الاسد باقتفاء الاثر وسرت والبندقية في يدي وانا التفت حولي يمنة ويسرة ومهنا سائر ورائي ببندقية اخرى وكان الدم كثيراً في الطريق فسرنا مسرعين ولم نكد نسير ربع ميل حتى سمعنا زئيراً عميقاً امامنا فامعنت نظري بين الادغال واذا انا بالاسد وهو رابض والشرر يتطاير من عينيه وانيابه بادية كالخناجر. فسددت بندقيتي اليه واطلقتها فوثب عليها وثبة المستقتل فاطلقت الرصاص عليه ثانية وهو واثب فوقع ثم نهض وهجم علي فاطلقت الرصاص ثالثة ومددت يدي الى ورائي لاناول البندقية من مهنا واذا به قد هرب هو ومقتص الاثر وصعدا الى شجرة هناك فصرخت في الاثر ان اقتفي اثرهما باسرع من لمح البصر وكان الرصاص قد كسر رجلاً من وحش الاسد ولولا ذلك لتحقني وارداني قبلما اردته. ومع هذا وصل الى الشجرة قبل ان اصل انا اليها ولما رأى اني نجوت منه عاد ادراجه وهو يخمع فتناولت البندقية من مهنا واطلقتها عليه فوقع لا حراك به فنزلت حالاً ودنوت منه غروراً مني ولم اكد اصل اليه حتى نهض ووثب علي وكانت البندقية في يدي فرميته بالرصاص في صدره ورأسه فاحمرت عليه ووقع على خمس خطوات مني ومات موت الابطال فانه عض غصناً ضخماً كان قد كسره في وثبته فسحقه سحقاً

وكان العمال قد سمعوا صوت الطلقات واسرعوا الينا فوصلوا حينئذٍ وهجموا على الاسد

يريدون تمزيقهُ لشدة حنقهم ثم عادوا الى الصياح والطرب وحملوهُ وانوا بهِ الى خيمتي وكانت اقرب الخيام الى ذلك المكان . وقد وجدت في جسمهِ ست رصاصات وكان طولهُ تسع اقدام وست عقد وعلوهُ ثلاث اقدام واحدى عشرة عقدة ونصف عقدة وجلدهُ مهشم لكثرة ما مزقتهُ الاشواك وهو غير من الزرائب

وانتشر خبر انتصارنا على هذا الاسد في كل تلك الانحاء وجاء كثيرون لمشاهدتهِ من اماكن بعيدة وعاد العمّال الذين هربوا الى المعالم وصاروا ينظرون اليَّ نظر الهيبة والوقار ولا يخالفونني امراً بعد ان كانوا يتآمرون على قتلي واهدوا اليَّ حقّة من الفضة ونظم واحد منهم اسمهُ روشان قصيدة بالهندستانية في مدحي . وكتبوا على الحقّة الكتابة التالية

« نحن الرقيب والموقّعون والعمّال نهدي اليك هذه الحقّة علامة لشكرنا لك على ما ابديتهُ من البسالة في قتلك اسدين فتّاكين وانت تحافظ بنفسك فانقذتنا منهما بعد ان كانا بيّتانا ليلاً ويفتكان بنا . ونضيف الى اهدائنا هذه الحقّة اليك الدعاء لك بطول العمر والسعادة والفلاح وسنبقى دائماً خدامك الامناء »

ويلي ذلك توقيع الرقيب بالنيابة عن العمّال والتاريخ ٣ يناير سنة ١٨٩٩

ونشر المؤلف ترجمة القصيدة باللغة الانكليزية فان كانت مكتوبة بالهندستانية كما قال فشعراء هندستان يحذون حذو شعراء العرب في اساليبهم . وهاك ترجمة مطلعها و بعض الابيات التي تليهِ

« نبدأ بحمد الله السرمدي الذي لا تدركهُ الافهام المنزه عن العيوب والاوهام الحي ولم يكن لهُ جسم ولا نفس ولا قريب ولا اب ولا ولد لا يعادلهُ معادل ولا تولاهُ الاهواء . يعلم الغيب والشهادة لا لسان لهُ ولكنهُ ينطق بكل لسان . انا روشان اتيت هذه البلاد فوجدتها بلاد الغرائب كثيرة الحضور والجبال والادغال مشحونة بالاسود والنمور والجواميس والذئاب والافيال وكل اعداء الانسان »

ثم استطرد الى ذكر الاسدين وقص قصتهما بالتفصيل ووصف شجاعة المؤلف وصفاً شعرياً فقال ان الاسود لا تخاف الاسود ولكن نظرة من بترسن اوقعت الرعب في قلب اشرس الاسود فهرب من وجههِ الى غابة والرصاص يجري في اثره فضاعت حيلتهُ وتولاهُ اليأس وانطرح على الصعيد لا حراك بهِ . ثم استطرد الى ذكر الهدية فقال انهم صنعوها لهُ في بلاد الانكليز وجعلوها بيضاء كالشمس والقمر . والقصيدة طويلة تقع في ٩٣ بيتاً